مداخلة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في ندوة جامعة القدّيس يوسف والهيئة اليسوعيّة لخدمة اللاجئين (JRS) تتناول المشاريع البحثيّة التي تتمحور حول وضع اللاجئين السوريّين في لبنان، يوم الخميس الواقع فيه 27 أيلول (سبتمبر) 2018، في مدرّج غولبنكيان (حرم العلوم الإجتماعيّة).

أودّ أن أرحّب، أوّلًا، بفكرة الأب سيدريك براكاش Cedric Prakash وهو مِثْلي من الرهبنة اليسوعيّة نفسها، والمحامي الإقليميّ عن اللاجئين والمستشار في التواصل في الهيئة اليسوعيّة لخدمة اللاجئين لتنظيمه هذه الندوة التي كانت أصلًا مخصّصة لعرض نتائج المسح الميدانيّ الذي أُجريَ بمساعدة معهد العلوم السياسية حول العلاقات الإشكاليّة التي تطرح أحيانًا بين اللبنانيّين واللاجئين السوريّين. صحيح أنّ الهيئة اليسوعيّة لخدمة اللاجئين، في مجال الاهتمام العمليّ باللاجئين في العالم وفي الشرق الأوسط، تتمتّع بخبرة طويلة في مساعدة اللاجئ، هذا الشخص الذي هُجّر من أرضه واقتُلع من ثقافته بسبب الحرب أو بسبب الكوارث الطبيعيّة، ليجد نفسه في مخيّم أو في خيمة يتوسّل خبزه اليوميّ. جاءت فكرة الأب بادرو أروبي Pedro Arrupe الكاريزماتيّة، وكان الرئيس الإقليميّ للرهبنة اليسوعيّة في الستّينيّات والسبعينيّات من القرن العشرين، حين عاين ما يلي : في أثناء رحلة قام بها إلى آسيا، في نهاية العام 1979، تأثّر تأثّرًا بالغًا بما رآه : محنة لاجئي القوارب الفييتناميّين. لدى عودته إلى روما، كتب رسالة إلى الرؤساء اليسوعيّين الإقليميّين يطلب منهم المساعدة واقتراحات من أجل مشاركة تستجيب لها الرهبنة اليسوعيّة لحلّ مشكلة اللاجئين. جاء الجواب إيجابيّاً جدًّا، ليس فقط في ما يتعلّق بالمساعدات الماديّة والأموال بل إنّ اليسوعيين أيضًا قدّموا خدماتهم وكفاءاتهم. في تشرين الثاني / نوفمبر 1980، تمّ رسميًّا تأسيس الهيئة اليسوعيّة لخدمة اللاجئين من أجل تنسيق هذا العمل ودعمه وهو الذي أنشئ لأوّل مرّة من أجل اللاجئين القادمين من فييتنام. في رسالته، يقول أروبي إنّه يعتبر هذه الخدمة شكلاً حديثا جدًّا من أشكال الرسالة، مستوحى بالإضافة إلى ذلك من التزام الرهبنة اليسوعيّة للعمل من أجل "إيمان يفعل من أجل العدالة" في العالم (الجمعيّة العامة في جلستها الـ 32). اليوم، سيدريك براكاش، ونورس سمّور والعديد من اليسوعيّين الآخرين، ومع الآلاف من العلمانيّين، يبذلون ذواتهم من أجل قضيّة اللاجئين في حوالي 30 نقطة ساخنة في جميع أنحاء العالم. وقد انضمّ بعض الشباب من موظّفين إداريّين ومعلّمين في جامعة القدّيس يوسف في بيروت إلى هذه الأماكن التي يتمّ فيها تقديم المساعدات التعليميّة والإجتماعيّة والإنسانيّة في جوّ من المودّة والعطاء المجّانيّ.

في أثناء الإعداد لهذه الندوة وبما أنّ الجامعة استقبلتها في مدرّج غولبنكيان، تجسّدت فكرة تقديم ما أنجزته الجامعة نفسها كمشاريع بحثيّة في جميع المجالات حول وجود اللاجئين ومشاكلهم لا سيّما عندما أصبح من الواضح لدينا، شئنا أم أبينا، أنّه تمّ تنفيذ حوالي ستّين مشروعًا بحثيًّا يتراوح حجمها من حيث الكبر والأهميّة، وقام بها العديد من الباحثين في جامعة القدّيس يوسف حول اللاجئين، ولا سيّما اللاجئين السوريّين، ليس فقط كظاهرة وموضوع بحث علميّ بل كمأساة يعيشها اللاجئون أنفسهم واللبنانيّون أيضًا الذين يستضيفونهم. في الواقع، لا أحد يحبّ أن يترك أرضه ويهرب من منزله ليصبح متشرّدًا يعيش في ظروفٍ صعبة للغاية، لا بل فظيعة، في أرضٍ سيعتبرها دومًا غريبة وإن كان ينظر إليها على أنّها أخويّة. ونحن نعلم جيّدًا أنّ الكثير من الدماء

وسوء الفهم، والكثير من الذكريات غير السارّة والعداء أثّر على العلاقات أقلّه بين جزء لا بأس به من سكّان لبنان حيال سوريا لكي يكون اللاجئ السوريّ مرحّبًا به على أرض لبنان وكأنّ شيئا لم يكن. كان لا بدّ في الآونة الأخيرة أن تشتدّ الأزمة الإقتصاديّة المحليّة بحيث يكون هذا اللاجئ موضع شكّ مرّة أخرى في أنّه يأتي للاستيلاء على عمل اللّبنانيّ وكما نقول في لهجتنا الشعبيّة على لقمة عيشه.

إلا أنّ الندوة التي نطلقها اليوم، كجامعة القدّيس يوسف في بيروت، مع الهيئة اليسوعيّة لخدمة اللاجئين، حول مشروع بحث علميّ يتطرّق إلى استقبال اللاجئ وماهيّة تصوّراته عن الأراضي اللّبنانيّة، يليه عرضٌ لمشاريع بحثيّة قام بها الباحثون حول الجوانب المختلفة التي تحيط بوضع اللاجئين، وبشكلٍ أكثر وضوحًا وجود اللاجئين السوريّين، هذه الندوة هي علامة من علامات الزمن. الأمر ليس مدعاة للتفاخر بالعدد الكبير من المشاريع البحثيّة التي ستُعرَض، نحو 60 مشروعًا تمّ تنفيذها خلال السنوات الأربع الماضية، لكنّنا نودّ أن نقول إنّ هذا الوجود لم يمرّ مرور الكرام بالنسبة إلى جامعة مثل جامعتنا، ابنة زمانها ومحيطها، وإنّ الندوة هي طريقة للاهتمام بوضع اللاجئ، وبالمأساة التي يعيشها وسبق أن عاشها، وبتعليمه وسلوكيّاته، وكذلك آثار هذا الوجود على الواقع اللّبنانيّ في أكثر من جانب.

يركّز عنوان اليوم الذي اقترحه سيدريك براكاش " Journeying Together "، وهو يعني ما يعنيه أيّ الرحلة معًا، على جانب تميل المجالات السياسيّة والإقتصاديّة والماليّة والثقافيّة والإجتماعيّة إلى طمسه أو حتّى حذفه. هذا الجانب يتمثّل بالهويّة الإنسانيّة الأكثر عمقًا والأكثر شيوعًا بين البشر وهي توحّدهم وتقرّبهم، ولكنّ هذه الهويّة تمّ وضعها جانبًا عدّة مرّات لأنّ خوف الإنسان من قريبه يغلب في الكثير من المناسبات ويزرع عدم الثقة بين أولئك الذين يشاركون الإنسانيّة نفسها بدلًا من غرس الثقة ومجتمع المصير الواحد. يذكّرنا هذا العنوان بمَثل السامريّ من الإنجيل وبالعديد من الأوضاع الأخرى حيث يسوع المسيح يطلب منّا بوضوح التغلّب على الحواجز التي تفصلنا عن قريبنا، حتّى الحواجز الدينيّة، ناهيك عن الحواجز الإقتصاديّة والإجتماعيّة من أجل العيش بأخوّة مع الآخر الذي يشبهنا ولا يشبهنا في الوقت نفسه. أعتقد أنّ الأبحاث تكشف لنا هذا المجتمع القائم على الرابط الإنسانيّ، وهذا ما يلتقي مع هواجس الإنجيل.

في مشاريعنا البحثيّة، نحن نعلم أنّ كليّة الطبّ تحظى بجزءٍ هامّ لأنّ اللاجئ هو عرضة للأمراض والمشاكل الصحيّة، ممّا يعني أنّ المستشفى الجامعيّ والخدمات الصحيّة الأخرى في الجامعة كان لا بدّ لها أن تستقبل مئات الحالات من المرضى وتساعدهم. إهتمّ معهد الدراسات السياسيّة بالتعليم والصحّة وإمكانيّة التوظيف وازدياد عدد اللاجئين السوريين وأصدر نتائج لم تترك الكثيرين في اللامبالاة بل أثارت ردود فعل مختلفة. عملت المدرسة اللّبنانيّة للتدريب الإجتماعيّ على الإندماج الإجتماعيّ وعدم استقرار اللاجئين بسبب الحرب والتشرّد. وعلّق مركز الدراسات للعالم العربيّ المعاصر (CEMAM) على بعض التحقيقات المتعلّقة باللّاجئين وسلوكيّاتهم. من الواضح أنّ الموضوع كان ولا يزال يثير اهتمام الباحثين لأنّه مصدر لبيانات ومعطيات قابلة للقياس الكمّي والنوعيّ، مثل موقف الحكومة اللّبنانية تجاه وجودهم والعديد من المضايقات التي يمكن أن يتعرّضوا لها كلّ يوم.

في الورقة التي ستُعرَض بعد قليل حول موضوع البحث الذي أجرته الهيئة اليسوعيّة لخدمة اللّاجئين، نتناول مسألة عودة اللّاجئ إلى بلده، وهو أمر مرغوب به في كلّ مكان لكن من الصعب اليوم أن ندعو إلى ترتيبات يجب أن نتّخذها بهذا الشأن وأن نحدّد وقت مغادرته. إلا أنّ هناك واقع يحتّم القيام بكلّ شيء من أجل الإلتزام بإعادة اللاجئين إلى أرضهم ومدنهم، فالأمر لا يتعلّق

بمسألة التخلّص منهم أو التخفيف من وطأة وجودهم، لكن علينا النظر إلى هذه العودة كحقّ يتمتّع به اللاجئ للعودة بأمان إلى أرضه وكواجب يترتّب علينا لمساعدته للعودة إلى دياره .على هذا المستوى، يجب علينا أن نناضل لكي يكون دور الهيئة اليسوعيّة لخدمة اللاجئين ودور المنظّمات دفاعًا إن لم يكن نداءً بغية عودة اللاجئ كحقّ له وكواجب يترتّب على المؤسّسات كي تساعده على إعادة الاندماج في مجتمعه الأساسيّ.

أختتم بكلام البابا فرنسيس الذي يستعيد ما قاله القدّيس يوحنّا بولس الثاني : "إذا كان الكثير من الناس يتقاسمون "حلم" عالم يسوده السلام، وإذا كنّا نقدّر مساهمة المهاجرين واللاجئين، تستطيع الإنسانيّة أن تصبح دائمًا عائلة الكلّ وأن تصبح أرضنا "بيتًا مشتركًا" حقيقيًّا. على مرّ التاريخ، آمن الكثيرون بهذا "الحلم" وأولئك الذين عاشوه يشهدون أنّ الأمر ليس مجرّد وهم لا يتحقّق. في لبنان اليوم، وبمنأى عن مشكلة اللاجئين ووطأتها، كم نحتاج نحن أنفسنا، إن لم يكن قادتنا، إلى تكرار هذه الكلمات مع إيلاء اهتمام كبير بالبيت اللّبنانيّ وبحجمه ولا سيّما رسالته في أن يكون أكثر من وطن، أن يكون رسالة السلام والتضامن والحرّيات.